

شرح العقيدة الطحاوية

قوله : (ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيمة والعرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب والمراتط والميزان) .

ش : الإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة والعقل والفطرة السليمة فأخبر الله سبحانه عنه في كتابه العزيز وأقام الدليل عليه ورد على منكريه في غالب سور القرآن وذلك : أن الأنبياء عليهم السلام كلهم متفقون على الإيمان به فإن الإقرار بالرب عام فيبني آدم وهو فطري كلهم يقر بالرب إلا من عاند كفرعون بخلاف الإيمان باليوم الآخر فإن منكريه كثيرون - محمد A لما كان خاتم الأنبياء وكان قد بعث هو وال الساعة كها تين وكان هو الحasher المقرب - بين تفضيل الآخرة بيانا لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء ولهذا طن طائفه من المتكلفه ونحوهم أنه لم ي Finch بمعاد الأبدان إلا محمد A وجعلوا هذه حجة لهم في أنه من باب التخييل والخطاب الجمهوري .

والقرآن بين معاد النفس عند الموت ومعاد البدن عند القيمة الكبرى في غير موضع وهؤلاء ينكرون القيمة الكبرى وينكرون معاد الأبدان ويقول من يقول منهم : إنه لم يخبر به إلا محمد A على طريق التخييل ! وهذا كذب فإن القيمة الكبرى هي معروفة عند الأنبياء من آدم إلى نوح إلى إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام وقد أخبر الله بها من حين أهبط آدم فقال تعالى : { قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو لكم في الأرض مستقر ومتع إلى حين } { قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون } ولما قال إبليس للعين : { رب فأنظرنـي إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم } وأما نوح عليه السلام فقال : { وآه أنتـكم من الأرض نباتا * ثم يعيـدكم فيها ويخـرجكم إخراجا } وقال إبراهيم عليه السلام : { والذي أطمع أن يغـفر لي خطـيئتي يوم الدين } إلى آخر القصة وقال : { ربنا أـغـفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يـقوم الحـساب } وقال : { رب أـرـني كـيف تـحـيـي الموتـى } الآية وأما موسى عليه السلام فقال الله تعالى لما ناجاه : { إن السـاعـة آتـيـة أـكـاد أـخـفيـها لـتـجـزـى كل نـفـس بما تـسـعـى * فلا يـصـدـنـك عنـها مـن لا يـؤـمـن بـها وـاتـبع هـوـاه فـتـرـدـى } بل مؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد وإنما آمن بموسى قال تعالى حكاية عنه : { ويـا قـوم إـنـي أـخـاف عـلـيـكـم يـوـمـ التـنـاد * يـوـمـ تـوـلـوـن مدـبـرـيـنـ ما لـكـمـ مـنـ آهـ مـنـ عـاصـمـ وـمـنـ يـضـلـلـ آهـ فـمـاـ لـهـ مـنـ هـادـ } إلى قوله تعالى : { يا قـوم إـنـما هـذـهـ الـحـيـاةـ الـدـنـيـاـ مـتـاعـ وـإـنـ الـآخـرـةـ هـيـ دـارـ الـقـرـارـ } إلى قوله : { أـدـخـلـوـا آلـ فـرـعـوـنـ أـشـدـ الـعـذـابـ } وقال موسى : { وـاـكـتـبـ لـنـاـ فـيـ هـذـهـ الـدـنـيـاـ حـسـنـةـ وـفـيـ الـآخـرـةـ إـنـاـ هـدـنـاـ إـلـيـكـ } وقد أـخـبـرـ اللهـ فيـ قـصـةـ الـبـقـرـةـ : { فـقـلـنـاـ اـضـرـبـوهـ بـعـضـهـاـ كـذـلـكـ يـحـيـيـ آهـ الـمـوـتـىـ وـيـرـيـكـ }

آياته لعلمكم تعقلون } وقد أخبر ﷺ أنه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين في آيات [من] القرآن وأخبر عن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها : { ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بل ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين } وهذا اعتراف من أصناف الكفار الداخلين جهنم أن الرسل أنذرتهم لقاء يومهم هذا فجميع الرسل أنذروا بما أنذر به خاتمهم من عقوبات المذنبين في الدنيا والآخرة فعامة سور القرآن التي فيها ذكر الوعد والوعيد يذكر ذلك فيها : في الدنيا والآخرة وأمر نبيه أن يقسم به على المعاد فقال : { وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بل وربى لتأتينكم عالم الغيب } الآيات وقال تعالى : { ويستنبطونك أحق هو قل إني وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين } وقال تعالى : { زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بل وربى لتبعثن ثم لتتبؤن بما عملتم وذلك على إيسير } وأخبر عن اقترا بها فقال : { اقتربت الساعة وانشق القمر } { اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون } { سأله سائل بعذاب واقع * للكافرين إلى أن قال : { إنهم يرون بعيدها * ونراه قريبا } ودم المكذبين بالمعاد فقال : { قد خسر الذين كذبوا بلقاء ﷺ وما كانوا مهتدين } [{ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها } { ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد } { بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون } { وأقسموا بـ ﷺ جهد أيما نهم لا يبعث إـ من يموت بلـ وعدـ عليه حقـا } إلى أن قال : { ولـيـعـلـمـ الـذـيـنـ كـفـرـواـ أـنـهـ كـاذـبـينـ } { إنـ السـاعـةـ لـآـتـيـةـ لـأـرـبـبـ فيهاـ ولـكـنـ أـكـثـرـ النـاسـ لـيـؤـمـنـونـ } { وـنـحـشـرـهـمـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ عـلـىـ وـجـوـهـهـمـ عـمـيـاـ وـبـكـمـ وـصـمـاـ مـأـوـاهـمـ جـهـنـمـ كـلـمـاـ خـبـتـ زـدـنـاهـمـ سـعـيـراـ } { ذـكـرـ جـزـأـهـمـ بـأـنـهـ كـفـرـواـ بـآـيـاتـناـ وـقـالـواـ أـإـذـاـ كـنـاـ عـطـاـمـاـ وـرـفـاتـاـ أـإـنـاـ لـمـبـعـوـثـونـ خـلـقـاـ جـدـيـداـ } { أـولـمـ يـرـواـ أـنـ إـنـ الـذـيـ خـلـقـ السـمـاـوـاتـ وـالـأـرـضـ قـادـرـ عـلـىـ أـنـ يـخـلـقـ مـثـلـهـمـ وـجـعـلـ لـهـمـ أـجـلـاـ لـأـرـبـبـ فـيـهـ فـأـبـىـ الـظـالـمـونـ إـلـاـ كـفـرـاـ } { قـالـواـ أـإـذـاـ كـنـاـ عـطـاـمـاـ وـرـفـاتـاـ أـإـنـاـ لـمـبـعـوـثـونـ خـلـقـاـ جـدـيـداـ * قـلـ كـوـنـواـ حـجـارـةـ أـوـ حـدـيـداـ * أـوـ خـلـقـاـ مـاـ يـكـبـرـ فـيـ صـدـورـكـمـ فـسـيـقـولـونـ مـنـ يـعـيـدـنـاـ قـلـ الـذـيـ فـطـرـكـمـ أـوـلـ مـرـةـ فـسـيـنـغـضـونـ إـلـيـكـ رـؤـوسـهـمـ وـيـقـولـونـ مـتـىـ هـوـ قـلـ عـسـىـ أـنـ يـكـوـنـ قـرـيـباـ * يـوـمـ يـدـعـوكـمـ فـتـسـتـجـيـبـونـ بـحـمـدـهـ وـتـطـنـونـ إـنـ لـبـثـتـمـ إـلـاـ قـلـيلـاـ } .

فتأمل ما أجبوا به عن كل سؤال على التفصيل : فإنهم قالوا أولا : { أـإـذـاـ كـنـاـ عـطـاـمـاـ وـرـفـاتـاـ أـإـنـاـ لـمـبـعـوـثـونـ خـلـقـاـ جـدـيـداـ } فـقـيلـ لـهـمـ فـيـ جـوابـ هـذـاـ السـؤـالـ : إـنـ كـنـتـمـ تـزـعـمـونـ أـنـهـ لـأـخـالـقـ لـكـمـ وـلـأـرـبـ لـكـمـ فـهـلـاـ كـنـتـمـ خـلـقـاـ لـاـ يـفـنـيـهـ الـمـوـتـ كـالـحـجـارـةـ وـالـحـدـيـدـ وـمـاـ هـوـ أـكـبـرـ فـيـ صـدـورـكـمـ مـنـ ذـلـكـ ؟ ! فـإـنـ قـلـتـمـ : كـنـاـ خـلـقـاـ عـلـىـ هـذـهـ الصـفـةـ الـتـيـ لـاـ تـقـبـلـ الـبـقـاءـ - فـمـاـ الـذـيـ يـحـولـ بـيـنـ خـالـقـكـمـ وـمـنـشـئـكـمـ وـبـيـنـ إـعـادـتـكـمـ خـلـقـاـ جـدـيـداـ ؟ ! وـلـلـحـجـةـ تـقـدـيرـ آخرـ وـهـوـ : لـوـ كـنـتـمـ مـنـ حـجـارـةـ أـوـ حـدـيـدـ أـوـ خـلـقـ أـكـبـرـ مـنـهـماـ [فـإـنـهـ] قـادـرـ عـلـىـ أـنـ يـفـنـيـكـمـ وـيـحـيـلـ ذـوـاتـكـمـ وـيـنـقـلـهـاـ

من حال الى حال ومن يقدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإففاء والإحاله -
فما الذي يعجزه فيما دونها ؟ ثم أخبر أنهم يسألون آخر بقولهم : من يعيدهنا اذا استحالنا
جسومنا وفنيت ؟ فأجا بهم بقوله : { قل الذي فطركم أول مرة } فلما أخذتهم الحجة ولزمهم
حكمها انتقلوا إلى سؤال اخر يتعللون به بعلل المنقطع وهو قولهم : متى هو ؟ فأجيبوا
بقوله : { عسى أن يكون قريبا } .

ومن هذا قوله : { وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال : من يحيي العظام وهي رميم } ؟ إلى آخر
السورة فلو رام أعلم البشر وأفحضهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة أو
بمثلها بألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز ووضح الأدلة وصحة البرهان لما قدر فإنه
سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال ملحد اقتضى جوابا فكان في قوله : { ونسى خلقه } ما
وفي بالجواب وأقام الحجة وأزال الشبهة لما أراد سبحانه من تأكيد الحجة وزيادة تقريرها
فقال : { قل يحييها الذي أنشأها أول مرة } فاحتاج بالإبداء على الإعادة وبالنشأة الأولى
على النشأة الأخرى إذ كل عاقل يعلم ضروريًا أن من قدر على هذه قدر على هذه وأنه لو كان
عاجزا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على
المخلوق وعلمه بتفاصيل خلقه أتبع ذلك بقوله : { وهو بكل خلق عليم } فهو عليم بتفاصيل
الخلق الأول وجزئياته ومواده وصورته فكذلك الثاني فإذا كان تام العلم كامل القدرة كيف
يتغدر عليه أن يحيي العظام وهي رميم ؟ ثم أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر يتضمن جوابا
عن سؤال ملحد آخر يقول : العظام اذا صارت رميمًا عادت طبيعتها باردة يابسة والحياة لا بد
أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة بما يدل على أمر البعث فيه الدليل والجواب
معا فقال : { الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون } فأخبر سبحانه
بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة والبيروسة من الشجر الأخضر المتلدء بالرطوبة
والبرودة فالذي يخرج الشيء من صده وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها [و] لا تستعصي
عليه هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه من إحياء العظام وهي رميم ثم أكد هذا بأخذ
الدلالة من الشيء الأجل الأعظم [على] الأيسر الأصغر فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على
العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل
أوقيه أشد أقتدارا فقال : { أوليس الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم }
؟ فأخبر أن الذي أبدع السماوات والأرض على جلالتهما وعظم شأنهما وكبر أجسامها وسعتها
وعجيب خلقهما أقدر على أن يحيي عطاما قد صارت رميمًا فيردها إلى حالتها الأولى كما قال
في موضع آخر : { لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون }
وقال : { أوليس الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم بل وهو الخالق العليم
} ثم أكد سبحانه ذلك وبينه ببيان آخر وهو أنه ليس فعله بمنزلة غيره الذي يفعل بالآلات

والكلفة والنصب والمشقة ولا يمكنه الاستقلال بالفعل بل لا بد معه من آلة ومعين بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكونه نفس إرادته وقوله للمكون : كن فإذا هو كائن كما شاءه وأراده ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكت كل شيء بيده فيتصرف فيه بفعله وقوله : { وإليه ترجعون } ومن هذا قوله سبحانه : { أیحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة مني يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوی * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى } فاحتاج سبحانه على أنه لا يتركه مهملا عن الأمر والنهي والثواب والعقاب وأن حكمته وقدرته تأبى ذلك أشد الإباء كما قال تعالى : { أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون } إلى آخر السورة فإن من نقله من النطفة إلى العلقة ثم إلى المضعة ثم شق سمعه وبصره وركب فيه الحواس والقوى والعظام والمنافع والأعصاب والرباطات التي هي أشد وأحكم خلقه غاية الأحكام وأخرجه على هذا الشكل والمصورة التي هي أتم الصور وأحسن الأشكال كيف يعجز عن إعادته وإن شائه مرة ثانية ؟ أم كيف تقتضي حكمته وعنايته أن يتركه سدى ؟ فلا يليق ذلك بحكمته ولا تعجز عنه قدرته فانظر إلى هذا الاحتجاج العجيب بالقول الوجيز الذي لا يكون أوجز منه والبيان الجليل الذي لا يتوهם أوضح منه ومأخذة لقريب الذي لا تقع الظنون على أقرب منه .

وكم في القرآن [من] مثل هذا الاحتجاج كما في قوله تعالى : { يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة } إلى أن قال : { وأن إِنَّ يَبْعَثُ مِنْ فِي الْقُبُورِ } وقوله تعالى : { ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين } إلى أن قال : { ثم إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْعَثُونَ } وذكر قصة أصحاب الكهف وكيف أبقاهم موته ثلاثة شمسية وهي ثلاثة وتسعم سنين قمرية وقال فيها : { وكذلك أعزتنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها } .

والقائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة لهم في المعاد خبط واضطراب وهم فيه على قولين : منهم من يقول : تعدد الجواهر ثم تعداد ومنهم من يقول : تفرق الأجزاء ثم تجمع فأورد عليهم : الإنسان الذي يأكله حيوان وذلك الحيوان أكله إنسان فإن أعيدت تلك الأجزاء من هذا لم تعد من هذا ؟ وأورد عليهم : أن الإنسان يتحلل دائمًا فماذا الذي يعاد ؟ فهو الذي كان وقت الموت ؟ فإن قيل بذلك لزم أن يعاد على صورة ضعيفة وهو خلاف ما جاءت به النصوص وإن كان غير ذلك فليس بعض الأبدان بأولى من بعض ! فادعى بعضهم أن في الإنسان أجزاء أصلية لا تتحلل ولا يكون فيها شيء من ذلك الحيوان الذي أكله الثاني ! والعقلاء يعلمون أن بدن الإنسان نفسه كله يتحلل ليس فيه شيء باق فصار ما ذكروه في المعاد مما قوى شبهة المتكلسفة في إنكار معاد الأبدان .

والقول الذي عليه السلف وجمهور العقلاء : أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال فتستحيل

ترا با ثم ينشئها الله نسأة أخرى كما استحال في النسأة الأولى : فإنه كان نطفة ثم صار علقة ثم صار مضفة ثم صار عظاما ولحما ثم أنشأه خلقا سويا كذلك الإعادة : يعيده الله بعد أن يبلى كله إلا عجب الذنب كما ثبت في الصحيح [عن النبي A أنه قال : كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق ابن آدم ومنه يركب] [وفي حديث آخر : إن السماء تمطر مطرا كمني الرجال ينتبون في القبور كما ينبع النبات] .

فالنسأة ان نوعان تحت جنس يتفقان ويتما ثلان من وجه ويفترقان ويتتنوعان من وجه والمعاد هو الأول بعينه وإن كان بين لوازم الإعادة ولوازم البداءة فرق فعجب الذنب هو الذي يبقى وأما سائره فيستحيل فيعاد من المادة التي استحال إليها ومعلوم أن من رأى شخصا وهو صغير ثم رآه وقد صار شيخا علم أن هذا هو ذاك مع أنه دائما في تحلل واستحالة وكذلك سائر الحيوان والنبات فمن رأى شجرة وهي صغيرة ثم رأها كبيرة قال : هذه تلك وليس [صفة] تلك النسأة الثانية مما ثالثة لصفة هذه النسأة حتى يقال إن الصفات هي المغيرة لا سيما أهل الجنة إذا دخلوها فإنهم يدخلونها على صورة آدم طوله ستون ذراعا كما ثبت في الصحيحين وغيرهما وروي : أن عرضه سبعة أذرع وتلك نسأة باقية غير معرضة للآفات وهذه النسأة فانية معرضة للآفات . قوله : وجاء الأعمال - قال تعالى : { مالك يوم الدين } { يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين } [والدين : الجزاء يقال : كما تدين تدان أي كما تجاري تجاري] وقال تعالى : { جراء بما كانوا يعملون } { جراء وفاقا } { من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون } { من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون * ومن جاء بالسيئة فكبث وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون } { من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون } وأمثال ذلك [وقال A فيما يروي عن ربه D من حديث أبي ذر الغفاري B : يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه] وسيأتي لذلك زيادة بيان عن قريب إن شاء الله تعالى .

وقوله : والعرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب قال تعالى : { في يومئذ وقعت الواقعه * وانشققت السماء فهي يومئذ واهية * والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية * يومئذ تعرضون لا تخفي منكم خافية } إلى آخر السورة { يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملقيه * فأما من أوتي كتابه بيديمه * فسوف يحاسب حسابا يسيرا * وينقلب إلى أهله مسرورا * وأما من أوتي كتابه وراء ظهره * فسوف يدعوه ثبورا * ويصلى سعيرا * إنه كان في أهله مسرورا * إنه طن أن لن يحور * بل إن ربه كان به بصيرا } { وعرضوا على ربكم صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة } { ووضع الكتاب فتري المجرمين

مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا { يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماءات ويرزوا الواحد القهار } إلى آخر السورة { رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده } إلى قوله : { إن سريع الحساب } واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى A ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون } [وروى البخاري] في صحيحه عن عائشة أن النبي A قال : ليس أحد يحاسب يوم القيمة إلا هلك فقلت : يا رسول A أليس قد قال A تعالى : { فأما من أöttني كتابه بييمينه * فسوف يحاسب حسابة يسيرا } فقال رسول A : إنما ذلك العرض وليس أحد ينافس الحساب يوم القيمة إلا عذب] يعني أنه لو ناقش في حسابه لعبيده لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولكنه تعالى يعفو ويصفح وسيأتي لذلك زيادة [بيان] إن شاء A تعالى [وفي الصحيح عن النبي A أنه قال : إن الناس يصعقون يوم القيمة فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة العرش فلا أدرى أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور ؟] وهذا صعق في موقف القيمة إذا جاء A لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنوره فحينئذ يصعق الخلائق كلهم فإن قيل : كيف تصنعون بقوله في الحديث : [إن الناس يصعقون يوم القيمة فأكون أول من تنشق عنه الأرض فأجد موسى باطشا بقائمة العرش ؟] قيل : لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا ومنه نشأ الإشكال ولكنه دخل فيه على الراوي حديثا في حديث فركب بين اللفظين فجاء هذان الحديثان هكذا : أحدهما : [أن الناس يصعقون يوم القيمة فأكون أول من يفيق] كما تقدم والثاني : [أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيمة] فدخل على الراوي هذا الحديث في الآخر ومن نبه على هذا أبو الحجاج المزي وبعده الشيخ شمس الدين بن القيم وشيخنا الشيخ عماد بن كثير رحمهم A وكذلك اشتبه على بعض الرواية فقال : [فلا أدرى أفاق قبلي أم كان من استثنى A] ؟ والمحفوظ الذي توأطأت عليه الروايات الصحيحة هو الأول وعلى المعنى الصحيح فإن الصعق يوم القيمة لتجلی A لعباده إذا لفصل القضاء فموسى عليه السلام إن كان لم يصعق معهم فيكون قد جوزي بصعقة يوم تجلی ربه للجبل فجعله دكا فجعلت صعقة هذا التجلی عوضا عن صعقة الخلائق لتجلی ربه يوم القيمة فتأمل هذا المعنى العظيم ولا تهمله وروى الإمام أحمد و الترمذی و أبو بكر بن أبي الدنيا عن الحسن قال : سمعت أبا موسى الأشعري يقول : [قال رسول A : يعرض الناس يوم القيمة ثلاثة عرضات فعرضتان جدال ومعاذير وعرضة تطاير الصحف فمن أöttني كتابه بييمينه وحوسب حسابة يسيرا دخل الجنة ومن أöttني كتابه بشماله دخل النار] وقد روى ابن أبي الدنيا [عن ابن المبارك] : أنه أنسد في ذلك شعرا : .

(وطارت الصحف في الأيدي منشرة ... فيها السرائر والأخبار تطلع) .
(فكيف سهوك والأنباء واقعة ... عما قليل ولا تدري بما تقع) .

(أفي الجنان وفور لا انقطاع له ... أم الجحيم فلا تبقي ولا تدع) .

(تهوي بساكنها طورا وترفعهم ... إذا رجوا مخرجا من غمها قمعوا) .

(طال البكاء فلم يرحم تضرعهم ... فيها ولا رقية تغنى ولا جزع) .

(لينفع العلم قبل الموت عالمه ... قد سال قوم بها الرجعى فما رجعوا) .

قوله : والصراط أي : وتومن بالصراط وهو جسر على جهنم إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط [كما قالت عائشة Bها : إن رسول الله A سئل : أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماءات ؟ فقال : هم في الظلمة دون الجسر] وفي هذا الموضع يفترق المนาقون عن المؤمنين ويختلفون عنهم ويسبّقهم المؤمنون ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم [وروى البيهقي بسنده عن مسروق عن عبد الله A قال : يجمع الله الناس يوم القيمة] إلى أن [قال] : [فيعطيون نورهم على قدر أعمالهم وقال : فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمنيه ومنهم من يعطى دون ذلك بيمنيه حتى يكون آخر من يعطى نوره على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ مرة إذا أضاء قدم قدمه وإذا طفيف قام قال : فيمر ويمرون على الصراط والصراط كحد السيف دحص مزلة فيقال لهم : امضوا على قدر نوركم فمنهم من يمر كأنقضاض الكوكب ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالطرف ومنهم من يمر كشد الرجل يرمل رملًا فيمررون على قدر أعمالهم حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه تخر يد وتعلق يد وتخر رجل وتعلق رجل وتصيب جوانبه النار فيخلصون فإذا خلصوا قالوا : الحمد لله الذي نجانا منك بعد أن أرناك لقد أعطانا الله ما لم يعط أحد] الحديث .

وأختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى : { وإن منكم إلا واردها } ما هو ؟ والأظهر والأقوى أنه المرور الصراط قال تعالى : { ثم ننجي الذين اتقوا وندبر الطالمين فيها جثيا } [وفي الصحيح أنه A قال : والذي نفسي بيده لا يلتج النار أحد بايع تحت الشجرة] قالت حفصة : فقلت : يا رسول الله أليس A يقول : { وإن منكم إلا واردها } فقال : [ألم تسمعيه قال : { ثم ننجي الذين اتقوا وندبر الطالمين فيها جثيا }] أشار A إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله بل تستلزم انتقاد سببه فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنا منه يقال : نجاه الله منهم ولهذا قال تعالى : { ولما جاء أمرنا نجينا هودا } ؟ { فلما جاء أمرنا نجينا صالحًا } { ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا } ولم يكن العذاب أصاب بهم ولكن أصاب غيرهم ولو لا ما خصمهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك وكذلك حال الوارد في النار يمررون فوقها على الصراط ثم ينجي الله الذين اتقوا ويدبر الطالمين فيها جثيا فقد بين A في حديث جابر المذكور : أن الورود هو الورود على الصراط [وروى الحافظ أبو نصر الواقلي عن أبي هريرة B قال : قال

تدخل حتى عين طرفة المطر على توقف لا أن أحببت وإن ذلك كرهوا وإن سنتي الناس علم : A الجنة فلا تحدثن في دين [حديث برأيك] أورد القرطبي وروى أبو بكر بن أحمد بن سليمان النجاشي عن يعلى بن منية عن رسول الله A قال : تقول النار للمؤمن يوم القيمة : جزء يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي] .

وقوله : والميزان أي : ونؤمن بالميزان قال تعالى : { ونضع الموارizin القسط ليوم القيمة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين } وقال تعالى : { فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون } قال القرطبي : قال العلماء : إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال لأن الوزن للجزاء في ينبغي أن يكون بعد المحاسبة فإن المحاسبة لتقدير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها قال : وقوله تعالى : { ونضع الموارizin القسط ليوم القيمة } يحتمل أن يكون ثم مواريز متعددة توزن فيها الأعمال ويحتمل أن يكون المراد الموزونات فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة والله أعلم .

والذي دلت عليه السنة : أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان [روى الإمام أحمد من حديث أبي عبد الرحمن الجبلي قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول : قال رسول الله A : إن الله سيختص رجلاً من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيمة فينشر عليه تسعه وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر ثم يقول له : أتنكر من هذا شيئاً أظلمتك كتبتي الحافظون ؟ قال : لا يا رب فيقول : ألك عذر أو حسنة ؟ فيبهره الرجل فيقول : لا يا رب فيقول : بل إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم اليوم عليك فتخرج له بطاقة فيها :أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فيقول أحضروه فيقول : يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لا تظلم قال : فتووضع السجلات في كفة [والبطاقة في كفة] قال : فطافت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل شيء بـ [الرحمن الرحيم] وهكذا روى الترمذى وابن ماجه وابن أبي الدنيا من حديث الليث زاد الترمذى : [ولا يثقل مع اسم الله شيئاً] وفي سياق آخر : [توضع المواريز يوم القيمة فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة] وفي هذا السياقفائدة جليلة وهي أن العامل يوزن مع عمله ويشهد له [ما روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي A قال : أنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيمة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال : اقرؤوا إن شئتم : { فلا نقيم لهم يوم القيمة وزنا }] روى الإمام أحمد [عن ابن مسعود : أنه كان يجني سوا كاماً من الأراك وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكتفيه فضحك القوم منه فقال رسول الله A : مم تحشكرون ؟ قالوا : يا نبي الله من دقة ساقية فقال : والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد] وقد وردت الأحاديث أيضاً بوزن الأعمال أنفسها كما في صحيح مسلم [عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله A : الطهور شطر الإيمان والحمد شطر الميزان] [وفي الصحيح وهو

خاتمة كتاب البخاري قوله A : كلمتان خفيتان على اللسان حبيبتان إلى الرحمن ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم [وروى الحافظ أبو بكر البيهقي] عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ص قال : يؤتى با بن آدم يوم القيمة فيوقف بين كفتي الميزان ويوكل به ملك فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخائق : سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا وإن خف ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخائق : شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا [فلا يلتفت إلى ملحد معاند يقول : الأعمال أعراض لا تقبل الوزن وإنما يقبل الوزن الأجسام ! فإن الله يقلب الأعراض أجساما كما تقدم وكما [روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ص قال : يؤتى بالموت كبشاً أغر فيوقف بين الجنة والنار فيقال يا أهل الجنة فيشربون وينظرون ويقال : يا أهل النار فيشربون وينظرون ويرون أن قد جاء الفرج فيذبح ويقال : خلود لا موت] ورواه البخاري بمعناه فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال وثبت أن الميزان له كفتان والله تعالى أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات .

فعلينا الإيمان بالغيب كما أخبرنا الصادق عليه السلام من غير زيادة ولا نقصان ويا خيبة من ينفي وضع الموازين القسط ليوم القيمة كما أخبر الشارع لخفاء الحكم عليه ويقدح في النصوص بقوله : لا يحتاج إلى الميزان إلا البقال والفوال ! وما أحراه بأن يكون من الذين لا يقيم لهم يوم القيمة وزنا ولو لم يكن من الحكم في وزن الأعمال إلا ظهور عدله سبحانه لجميع عباده [فإنه] لا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين فكيف ووراء ذلك من الحكم ما لا اطلاع لنا عليه فتأمل قول الملائكة لما قال [الله] لهم : { إنني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال : إنني أعلم ما لا تعلمون } وقال تعالى : { وما أöttيتكم من العلم إلا قليلا } وقد تقدم عند ذكر الحوض كلام القرطبي أن الحوض قبل الميزان والمرأط بعد الميزان في الصحيحين : أن المؤمنين إذا عبروا المرأط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتصر لبعضهم من بعض فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة وجعل القرطبي في التذكرة هذه القنطرة مرأطا ثانيا للمؤمنين خاصة وليس يسقط منه أحد في النار والله تعالى أعلم